من تراب الطريق (٣٧٨) أين ذهبت الوحدة (*) وولّت النخوة ؟!

من أكثر من ألف عام ، فى سنة ٢٢٣هـ ، وتحديدًا فى أرض الشام ، أطلقت امرأة عربية هاشمية صيحة استجارة من جنود الروم الذين هاجموا الشام ، وباغتوا إحدى مدنه الحدودية بجحافل جرارة بقيادة «نبوفيل» إمبراطور الروم ، حيث أداروا بالمدينة ـ مذبحة بشعة هائلة ـ كمذابح صابرا وشاتيلا ! ـ نصبوها للأبرياء مع جموع من الصقالبة وغيرهم .. أشعلوا فيها الحرائق ، وأعملوا السيوف فى الرجال والنساء والأطفال ، وَمَثَّلوا ، وشوهوا ، وجرت بالمدينة أنهار من الدماء !!

«وا معتصماه» .. «وا معتصماه» !!

كانت هذه هى صيحة الاستجارة التى أطلقتها امرأة عربية هاشمية ، تنادى بها على «المعتصم بالله» الخليفة العباسى الموجود بعاصمة ملكه فى بغداد ، على مسافة تربو على ألف كيلو متر !

تسامع الخليفة المعتصم (أخو الأمين والمأمون) ـ وهو من عظماء خلفاء الدولة العباسية ، تسامع بما تسامعت به جموع العرب بالهجوم الغاشم وبصرخة المرأة المستجيرة التى جعلت أصداءها تتردد فى جنبات البلاد .. فى العراق وبغداد ، كما فى الشام ودمشق ، وكما فى كل ربع من

(*) المال ٢٣/ ١٢/ ٢٠٠٩

الأمصار العربية التى كانت آنذاك تحت راية الدولة العباسية .. فانتفض المعتصم يُجيّش الجيوش لرد العدوان على حرمات الدولة .. لا كانت هناك أيامها إذاعات ، ولا فضائيات ، ولا آليات للإعلام ، ولا كانت هناك جامعة للدول العربية ، ولا الجيوش التى تصرف الثروة العربية ـ الآن ـ مئات المليارات على تسليحها بأحدث الأسلحة والطائرات لتضعها فى المخازن التى صارت كالمتاحف ! .. ومع ذلك ، اضطرمت الحمية فى نفس المعتصم كما اضطرمت فى نفوس الناس الذين انسابوا من كل أرض وفج ونجع ليتساندوا لرد الغزاة !!

فى أيام قلائل ، تجمع حول المعتصم بغربى دجلة جيش هائل من المتطوعين يقال إنهم زادوا على مائتى ألف .. قسمهم المعتصم إلى ثلاثة فيالق ـ بتعبيرات اليوم .. انطلقوا على ثلاثة محاور على تخطيط بأن يتلاقوا بعد إنجاز المهمة التى اضطلع بها كل منهم .. التقى الفيلق الأول بجيش الإمبراطور «نبوفيل» وهزمه هزيمة منكرة فر الإمبراطور على أثرها يبكى سوء منقلبه ، وتوغل الفيلق الثانى فى حملة تأديبية بداخل الأراضى البيزنطية حتى تمكن من دخول أنقرة ، وعلى مشارف «عمورية» التقت الفيالق الثلاثة لتحيط بالمدينة وتحاصرها من كل جانب ..

يروى التاريخ أن المدينة كانت حصينة ، يحيط بها سور شاهق ، تحميه أبراج ضخمة محصنة بلغت (٤٤) برجًا موزعة على السور ، وحوله خندق دائرى عميق ، ومنصوب على أعالى الأبراج عدد ضخم من المنجنيقات لترسل حممها على المحاصرين !!

سوف تشدك صفحات البطولة التى سطرها هؤلاء الأسلاف ، وحولوا بها الهزيمة إلى نصر مؤزر دفعوا به العدوان عن بلادهم ..فعلنا ذلك حين خرجنا من قاع نكسة ١٩٦٧ إلى عبور القناة وتحطيم واجتياز خط بارليف الحصين فى رمضان / أكتوبر ١٩٧٣ .

فما الذى حدث لنا بعد ذلك حتى فرطنا فى نتائج ما أنجزناه ، وماهو سر الموات الذى نشب فى شعوبنا العربية حتى استسلمت أو تكاد لحالة الاغتصاب المستمرة الجارية على فلسطين .. الوطن والشعب .. والغارات التى تضرب فى الوطن هناك وفى الناس ، وتسلب وطنا بأكمله وتعمل الإبادة فى شعبه .. ما سبب هذا الانفراط الذى أحل التنافر والتصادم محل الأمل القومى الذى كنا نرنو الخروج به من وهدة ما أحاط بنا .. لماذا سكتنا ونسكت عما يجرى فى فلسطين ، ولماذا مَنَعْنَا بث الأغانى التى كانت تحفز على الدفاع عنها ؟! ولماذا سكتنا بل وناصر بعضنا الغزو الأنجلو / أمريكى للعراق الذى دمروه وأخرجوه من رصيد «القوة» العربية ، ويديرون فيه وحوله ما يكبله ويكبلنا ويسخرنا لتحقيق الأهداف الإسرامريكية فى المنطقة ـ ومع ذلك لا يزال بعضنا يصانع ، ويهرول ويطبع ويتعامى عما يحاك لنا ؟!!

أين ذهبت الوحدة والأمل ، وكيف ولّت النخوة ؟!!